ظـــواهر متماثلة

فى تاريخى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

لا يكاد يكون بين الأدبين العربى والانجليزى من وجوه التشابه إلا الأمور العامة التى يتفق فيها كل أدبين يعبران عن نوازع النفس الانسانية ، وهما فيما عدا ذلك مختلفان جد الاختلاف ، وهذا راجع الى أمرين: أولهما اختلاف الأمتين فى الجبلة والبيئة : فهـذه أمة شرقية ساميّة خرجت من جزيرة صحراوية وورثت الدول الشرقية القديمـة ، وتلك أمة غربية آريّة خرجت من جزيرة شماليـة وشاركت فى تراث الدولة الرومانية ، وثانى الأمرين اختلاف قسطى الأدبين من التأثر بالثقافة اليونانية : فبينما كان تأثر الأدب العربى بها قليلاً غير مباشر كان تأثيرها فى الأدب الانجليزى شاملاً غامراً للأصول والفروع ، فاكتسب ذلك الأدب صبغة إغريقية ظل الأدب العربى بعيداً عنها

ولـكن هناك ظواهر فى تاريخ الأمتين والأدبين متماثلة أدى إليها تماثل وقتى فى الظروف وأدت الى نتائج متماثلة : فعصر الجاهلية فى تاريخ الأدب العربى شبيه بعصر ما قبل النزابث فى التاريخ والأدب الانجليزيين : ففى ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته فى عزلة كبيرة عن العالم على حال شبيهة بعصر الأبطال فى بلاد اليونان الذى أنتج ملاحم هوميروس ، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافيين ، وعرى الأسلوب واللفظ ، ساذجى المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكانا أقل رقيا من الأدب الذى جاء فى العصر التالى . والواقع أن الشبه هنا بين الجاهلية العربية وعصر الأبطال اليونانى كبير : فى الجاهلية كان العرب منقسمين قبائل وعشائر متناحرة كما كانت البلدان والعشائر اليونانية ، وإن كانت تحس بقوميتها العربية العامة متمثلة فى لغتها وفى مجامعها السـنوية فى الأسواق وفى الحج الى مكة ، كما كان اليونان يجتمعون فى المواسم الأولمبية ويحجون الى دلفى ، وفى تميزها على الأمم الأخرى التى كان العرب يسمونهم عجماً كما كان اليونان يعتبرون مَن عداهم برابرة ، وإن يكن العصر الجاهلى لم ينتج ملاحم كباراً كالالياذة والأوديسا فى اليونان أو كملحمة « بيولف » فى انجلترا ، فان قصائده على قصرها هى من هذا الضرب . ولعل العصر الجاهلى لو طال قليلاً لائتلفت تلك القصائد الصغيرة التى تمجد كل منها قبيلة واحدة ، فـكونت ملحمة كبرى تتغنى بفروسية الأمة العربية قاطبة

ونهضة العرب بظهور الاسلام تماثل نهضة الانجليز فى عصر النزابث بوصول النهضة الأوربية الى انجلترا واتجاه نظر الانجليز الى ماوراء البحر ؛ ففى كلا العصرين بدأت كل من الأمتين تخرج من محيط جزيرتها وتشب عن طوق عزلتها وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته وتبنى لنفسها امبراطورية مترامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتقاء عظيما ورقت ديباجته ، وإن يكن الرقى الأدبى فى صدر الاسلام قد تمثل فى النثر بينما تمثل فى العصر الالنزابثى فى الشعر ولا سيما الشعر التمثيلى

وبانبعاث هذه النهضة وقيام هـذه الدولة انتشرت كلتا اللغتين فى بقاع الأرض وافتتحت آدابهـا كثيراً من الأمم ؛ فاللسان العربى الذى لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة فى الجاهليـة صار يُتكلم من حدود الصين الى المحيط الأطلسى ، وأثر فى لغات وأزال غيرها وحل محلها ، وأصبح اليوم لسان شعوب كثيرة فى آسيا وأفريقية . واللغة الانجليزية التى لم يكن يتكلمها إلا ملايين تعد على الأصـابع فى عهد شكسبير أصبحت تُتكلم وتدرس فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالميا كما كان أدب العرب عالميا على عهد عظمتهم

ولم تكد كل من الأمتين توطد أركان امبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلاً حتى طاولها فى النفوذ والسلطان ، وداناها فى ازدهار الآداب والعـلوم ، فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية استقلت الولايات المتحدة الأمريكية عن الامبراطورية البريطانية ؛ بيد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبيـة على طول المدى فلم تنجب الأندلس مر الأدباء من بذوا فحول العباسيين ، ولا ظهر فى أمريكا ولا غيرها من أنحاء الامبراطورية البريطانية من دانى شـكسبير وملتون

وباتصال كل من الأمتين بالأمم المتحضرة سرت إليها موجة

عدوى من دواعى الترف وبدا أثر ذلك فى أدبها : فاختلاط العرب بالفرس أدخل الترف والعبث فى البلاط العباسى وأثر فى جيل أبى نواس من الشعراء ، واتصال الانجليز بفرنسا فى ظل ملكها الترف لويس الرابع عشر أفسد بلاطهم على عهد شارل الثانى وبان أثر ذلك فى الأدب ولاسيما فى الرواية التمثيلية

وكلا الأدبين تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوى الذى تدين به أمته ؛ فأثر القرآن فى المجتمع العربى وتاريخ اللغة العربية وأصولها وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسيم بين الجسامة ، فقد كان منذ جاء مثلاً أعلى وثقافة قائمة بذاتها ؛ والانجيل منذ ترجم إلى الانجليزية فى عهد الاصلاح الدينى كانت له اليد الطولى فى تثبيت الأسلوب النثرى الانجليزى ، وتثبيت مفردات اللغة ، وإدخال مفردات جديدة واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للأدباء يحتذونها فى إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلى فى كتابين من ذخائر الأدب الانجليزى : أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثانى « الفردوس المفقود » لملتون : فى كليهما كان أساس القصة ما ورد فى الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هى الثقافة الوحيدة التى نالها (بنيان) الذى كان قسطه ضئيل الحظ من التثقف ، ومع ذلك فأسلوبه المبنى على أسلوب الانجيل يعد فى الذروة فى أدب اللغة

وهناك التأثر بالتراث اليونانى الذى كان حتما على كل شعب أتى بعد اليونان أن يتأثر به : فاغترف أدباء الانجليزية من مناهل الأدب اليونانى اغترافاً واستوعبوه دراسة فجاء أثره شاملاً عاماً لا يقتصر على فرع دون فرع ولا يمتاز به جيل أو أدباء أو أديب دون أديب ، على حين كان التأثير اليونانى فى الأدب العربى كما تقدم ضئيلاً غير مباشر آتياً عن طريق دراسة فلسفة اليونان لا أدبهم مما بدا أثره فى حكم المتنبى والمعرى واضرابهما

لم يأخذ العرب عن اليونان ولا عن غيرهم أخذاً بالجملة كما صنع الانجليز ، بل ظلوا فى زمانهم شامخين بأدبهم ينظرون من عليائه إلى من حولهم من أمم وما لها من آداب ؛ أما عهد الأخذ بالجملة فى تاريخ الأدب العربى فهو عصرنا الحاضر الذى يوسع فيه أدباؤنا اللغات الغربية دراسة ونقلاً ومحاكاة ، فيغنون أدبنا أى إغناء ، ويخصبونه بالعنصر الأجنبى الذى كان يعوزه

هذه ظواهر يتقارب فيها تاريخا الأدبين لتقارب فى ظروف الأمتين فى شتى العهود ، أما ظواهر التباين فلا تكاد تعد ؛ ويجب حين نقابل بين التاريخين أن نذكر أن دولة العرب أقدم عهداً وأدبهم أعرق محتداً ، وأن دولتهم وأدبهم قد غبر الفصل الأول من قصتهما ، وهما اليوم فى طور بعث جديد ، أما الدولة والأدب الانجليزيان فما يزالان فى الفصل الأول

فخرى أبو السعود

لن تشـــعر بالغربة

على ظهر الباخرتين

«زمزم» و «الكوثر»

فأن كلا منهما قطعة من صميم الوطن

متجهة الى بيت الله الحرام

شركة مصر للملاحة البحرية

جهزتهما للحجاج بأوفر أسباب الراحة والأمان

(اطلبوا كافة الاستعلامات من ادارة الشركة بعمارة بنك مصر القاهرة)